معلمة عبر السرد: لنكن ما نريد

آمال أبو حرب

لم يخطر لي قبل العام 2001 أني سـ "أتورط" في مهنة التعليم، و لم تكن أحد أحلامي أو طموحاتي. أقول "أتورط" لأن من يلتحق بهذه المهنة، يصبح التعليم ملاصقاً له أينما حلَّ وارتحل ولا فرار منه. وكانت أحلام الطالبة المتفوقة في مدرستها هي أن تكون امرأة ناجحة في حياتها، وصدقاً لم تستهوني أحلام زميلاتي من المتفوقات بأن أصبح طبيبة مثلاً، فالطب بحاجة لأن يكون عندك "انفصام" في المشاعر، عليك أن تكون ذا أحاسيس مرهفة لتشعر بالآم المريض، وفي الوقت عليك نفسه أن تضع أحاسيسك جانباً وتستخدم مبضع الجراح بكل براعة وسهولة لاستئصال المرض. وأنا لست من هؤلاء. ولكن كان عليَّ أن التحق بالدراسة الثانوية "الفرع العلمي"؛ لأن المنطق والأهل والمعلمين في المدرسة أخبرونا أن المتفوقين عليهم اختيار –وهو فعلاً إجبار بالاختبار– الفرع العلمي وليس الأدبي أو غيره.

بدأت ارسم خيالات أحلام عن المهنة التي سأختارها، وجذبتني لوهلة من الزمن فكرة "الهندسة"، وخلق البيوت من العدم، والاهتمام بتفاصيلها، وتلاشت هذه الفكرة أمام نظرات معلمة الفيزياء المخيفة، ولسانها السليط في انتقادها لهفوات الطالبات وأخطائهن، وبأنهن فاشلات، ولن يصبحن إلا ربات بيوت، وأن لا مكان في المدرسة سوى للنابغات. فكانت كلماتها كفيلة بأن تحول حصص الفيزياء لكابوس مزعج طوال عامين دراسيين كاملين، مع أن حصص العلوم قبل ذلك كانت من أكثر الحصص إمتاعاً وإشباعاً لرغباتي في الاستكشاف، وكنت أمينة المختبر في المدرسة. تلك المعلمة أقامت حاجزاً نفسياً جعلني أخاف المدرسة لأول مرة في حياتي، وحتى اليوم ما زلت أذكر بعضاً من كلماتها للطالبات حتى بعد مرور هذه السنوات. وكلما أتذكرها يزداد يقيني وإيماني بأن إعطاء الطالبة جرعات من الثقة بنفسها وقدراتها

وتعزيز إنجازاتها –حتى لو كانت قليلة أو ضعيفة– هي أولى وأهم درجات النجاح للطالبة وللمعلمة على حد سواء.

ومرت الأيام وانتهيت من المدرسة الثانوية، وبعدها أجريت عملية جراحية لاستئصال "الزائدة الدودية"، فقدمت أوراقي للالتحاق بجامعة النجاح الوطنية بشرط الابتعاد عن التخصصات العلمية. التحقت بكلية الآداب، ووقع اختباري على دراسة الأدب الانجليزي الذي أتاح الفرصة لي لتذوق نكهات مختلفة من ثقافات العالم وعاداته، فكنت "الرقم واحد" في القسم في مساقات النقد الأدبي والكتابة. وأصبحت ملخصاتي المرجع الأول لزملائي طلاب القسم، وبدأت تتراءى أمام عيني فكرة الكتابة والأدب والترجمة، إلى أن تخرجت من الجامعة، ووجدت نفسي أمارس عملاً مكتبيا مملاً في إحدى المؤسسات، كله أرقام وإحصائيات وأوراق تمتلئ بكلمات صماء بكماء لا تجيد التعبير عن نفسها. واستمر هذا العمل أشهراً قليلة، ووجدتني في لحظة هروب من الملل والروتين، أتقدم بطلب توظيف في مديرية رام الله، وتركت العمل المكتبي في صباح يوم نشر نتائج امتحان التوظيف ونجاحي به. غادرت العمل غير آسفة ولا نادمة.

ومن ذاك اليوم "تورطت" في أصعب وأسهل وأخطر وأشرف وأجمل مهنة؛ وهي التعليم، الذي كثيراً ما يوصف

بأنه "مهنة من لا مهنة له"، وهذا الوصف هو وصمة لا بدّ لنا من محوها وتغييرها.

فكانت بدايتي في مدرسة الماجدة وسيلة في بيرزيت معلمة لغة إنجليزية، بدأت فيها بزراعة بذور المهنة داخلي، وبدأت تنمو رويداً رويداً، وبها أمسكت لأول مرة بكتاب لأقوم بدراسته وتدريسه. وبعد مرور عام، اضطررت للانتقال من محافظة رام الله إلى محافظة طولكرم نظراً لصعوبة المواصلات والحواجز العسكرية على الطرق. وشاءت الأقدار أن أعود معلمة إلى المدرسة نفسها التي كنت فيها طالبة. وفي اليوم الأول لدخولي مدرستي، وهي مدرسة تابعة لوكالة الغوث الدولية، عصفت الكثير من الأفكار والمشاعر داخلي، وبخاصة أنني سأعود "زميلة" مهنة لمعلماتي. كيف سأكسر الحاجز النفسي لدي ولديهن؟ وكيف سأثبت نفسي بينهن وهن معلماتي؟ وتطور الصراع داخلي عندما اختارتني مديرة المدرسة بعد مرور أشهر قليلة، عضواً في "فريق التطوير المدرسي"، وكان من ضمن مهامي أن أعقد أو أشارك في ورش عمل في النمو المهني للمعلمات، وكان هذا التحدي هو الأكبر، فكان لزاماً عليّ كسب ثقة معلماتي وطالباتي، وأن أكون أهلاً لهذه المسؤولية. ورويداً رويداً، اندمجت في نسيج المدرسة التربوي التعليمي والإداري، وبدأت أثبت نفسي على خارطة المدرسة. وكان من ضمن المهام الإشراف –أنا وزميلة أخرى لي– على الوسائل التعليمية في المدرسة، وعند قيامنا بعمل جرد للوسائل المعينة التعليمية، صعقنا عندما اكتشفنا الشح الكبير في الوسائل التعليمية في المدرسة، واعتماد المعلم بالدرجة الأولى على السبورة والطباشير لإيصال المعلومة دون مراعاة للفروق الفردية بين الطالبات وأنماطهن التعلمية. وعزت العديد من المعلمات هذا الشح إلى عدم وجود مكان مناسب لحفظ الوسائل التعليمية في المدرسة، وبالتالي ضياع وتلف ما يتم إنتاجه سنوياً من وسائل. ومن هنا، ولدت لدي ولدى زميلتي فكرة خلق قاعات تخصصية لمختلف المواضيع الدراسية عوضاً عن الصفوف التقليدية، فأصبحت الطالبة متحركة تنتقل من قاعة الفاروق مثلاً للتربية الإسلامية، إلى قاعة عبد الرحيم محمود للغة العربية، إلى قاعة الخوارزمي للرياضيات ... وهكذا. وقامت المعلمات بإثراء كل قاعة بالوسائل التعليمية الخاصة بالموضوع الدراسي الذي يدرس داخلها، ما خلق بيئة تعليمية غنيّة ومحفزة للتعليم بعيداً عن الروتين والرتابة، وفازت المدرسة بهذا المشروع بجائزة "إلهام فلسطين" للعام 2013، على المستوى الوطني "أ"، وحصلت على جائزة "المعلم المتميز" في المدرسة.

ومن الأمور التي لفتت نظري بعد ذلك، أن الوسائل التعليمية ليست كفيلة وحدها بتغيير توجهات الطالبات نحو التعلم، فالوسائل ترتبط ارتباطا جذرياً بالاستراتيجيات المستخدمة في التدريس. فلا بد من التنوع في أشكال الوسائل التعليمية ومضمونها وأهدافها، حتى تحقق ما يصبو إليه المعلم. فمثلاً، كثيراً ما يشعر الطالب بأن الواجبات البيتية هي عقاب له، مع أنه من المفترض أن تكون عكس ذلك. وحاولت حل هذه المشكلة وتجاوزها بتغيير محتوى الواجب البيتي، بحيث تقوم الطالبة بأدائها بالطريقة التي "تحفزها" على ترك الأحاديث الجانبية مع الأهل والأصدقاء، أو مشاهدة التلفاز أو الدردشة على الإنترنت، وتشجعها على أداء الواجب البيتي. فمثلاً، على كل طالبة أن تقوم بالتعبير عن المفردات الجديدة التي تعلمتها اليوم بالطريقة التي تراها مناسبة، فهناك من تكتب الكلمة وترسم بجانبها ما يعبر عنها، وهناك من تبحث في الإنترنت عن صورة مناسبة تضعها أمام الكلمة الجديدة، وهناك من تستخدمها في جمل أو نص قصير، وهناك من أنتجت عملاً يدوياً مميزاً يعبر عن الكلمة وأحضرته لغرفة الصف لعرضه أمام الطالبات. وكانت الفرحة في عيون طالباتي ورضاهن الذاتي عن إنجازهن وعن ما تعلمنه كافيين بالنسبة لي لأشعر أنني على الطريق الصحيح معهن.

أيضاً اتبعت معهن طريقة "الإبداع بالمقلوب" أو "ماذا لو"، وهي فكرة طرح أسئلة مغايرة، وتبدو للوهلة الأولى غير منطقية، وهذه الطريقة جعلت الطالبة تبحر في خيالها وتبدع في أفكارها بعيداً عن المألوف وعن المعتاد.

ورويداً رويداً بدأت أشعر بالفضول لأكتشف رأي طالباتي بأسلوبي، وأقف على مواطن الضعف والقوة فيها، وبدأت استخدم طريقة "الورقة السرية" في نهاية كل فصل دراسي، فأطلب من الطالبات الكتابة على قصاصة من الورق ما هي الأشياء المحببة والمفيدة لهن التي يرغبن في أن أستمر بتطبيقها، وما هي الممارسات التي لا يرغبن فيها. فيكون لكل طالبة حرية الرأي والتعبير عن رأيها الشخصي، وطلبت منهن عدم كتابة أسمائهن حتى لا تشخصن الأمور، ويعبرن بكل راحة وحرية. وعند جمع قصاصات الورق، أطلب من واحدة منهن قراءة التعليقات بصوت عالٍ ومناقشتها مع جميع الطالبات، ونرصدها على السبورة، فيكون في حال الإجماع عليه بمثابة "عقد اجتماعي" بيني وبين الطالبات لتطبيقه في الفصل القادم. وكنت أحرص دائماً على أن

لا أقوم أنا بقراءة آراء الطالبات، حتى لا أتعرف من خلال الخطوط على رأي الطالبات وحماية لنفسي من التأثر برأي الطالبة الشخصي.

تورطي في مهنة التعليم لا يزال سارياً حتى اليوم، واشتياقي للمدرسة أثناء العطلة الصيفية يثبت، بما لا يدع مجالاً للشك، أنه وصل لدرجة لا مجال فيها للتراجع، وأحب هذا التورط عندما أصادف في طريقي طالبات قمت بتدريسهن قبل سنوات، وهن الآن في الجامعة، ويقلن لي: "معلمتي شكراً لك، معك أحببت اللغة الإنجليزية، وزال خوفي منها". هذا الرأي وحده كفيل بأن يغمرني بسعادة لا توصف، ورضى أسعى إلى أن يكبر، وتواضع أرجو أن يبقى.

وأخيراً هناك حوار طريف يستهويني، أحبه وأحدث به نفسي وأدافع به عن فكرة أن «التعليم مهنة من لا مهنة له»، حيث سألت السيدة طفلاً صغيراً: ماذا تريد أن تصبح حين تكبر؟ أجابها بحسم طفولي ضاحك: معلم.

عقدت حاجبيها بكل الاستغراب: معلم؟! ليس طياراً ولا طبيباً ولا مهندساً؟؟ معلم!؟

وبلهجة غريبة ليست طفولية على الإطلاق، أكد الإجابة وقال: نعم معلم. لأن الطيار والطبيب والمهندس مرت عليهم لحظة أرادوا فيها أن يصبحوا مثله ... وهو ابتسم لهم: وقال كونوا ما تريدون.

طالبتي العزيزة: كوني ما ومن تريدين.

مدرسة بنات نور شمس الأساسية